الفصل الرابع

الوصل والفصل في البيان النبوي

الوصل والفصل بين الجمل ـ حقيقة ـ لا يأتي إلا لاعتبارات بلاغية تتناهى في دقتها وخطورتها ، نزولاً على مقتضى الحال ، ومقام الخطاب ، وقصد المتكلم وحاله .

قال الإمام عبد القاهر «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة وبما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، وإلا أقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم به أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، ذلك لغموضه ، ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[1].

وقال السكاكي : «محك البلاغة ، ومتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومتفاضل الأنظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسيار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطئه ومعجم جلائه وصدائه»[2] ولقد بلغ النبي في ذلك القمة والكمال .

وهذه نماذج من الوصل في الحديث النبوي :

عن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٤ (٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص ١١٩

فقال : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام»[2].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا»[3].

والحديث الأول يعالج البر والإثم ، فالبر هو حسن الأخلاق ، أما الإثم فهو ما يتردد في الصدر واستحيا صاحبه من اطلاع الناس عليه ، ويلاحظ أن الجملتين خبريتان وأن المبتدأين متناسبان بالتضاد يجمعهما العقل ، لأن المبتدأ أقرب خطورا بالبال ، ولا يخفى التناسب بين الخبرين أيضًا ذلك أن ما يكره المرء اطلاع الناس عليه من إثم لازم لسوء الخلق والسلوك ، والسر البلاغي هنا التوسط بين الكمالين مع وجود الجامع بين الجملتين ، ولذا كان العطف هنا بالواو متقض مقام مستلزما بيان البر والإثم في سياق البر والإثم في سياق واحد ، وإتمامًا للفائدة وإجابة للسائل ، مع توفير الترغيب والترهيب للبر والإثم .

وفي حديثي أبي هريرة ﷺ نجد توالف الجمل معطوفة بالواو ترغيبا في الأول الذي يشمل مجموعة من طيب الخلال التي تدخل الجنة ، وقد أنفقت في الإنشاء صياغة ، وفي أنها خلال طيبة يرتضيها العقل والدين فهي متناسبة عقلا وقد بلغ التناسب كماله بهذا السجع والموازنة .

أما الحديث الأخير فقد تكرر فيه النهي عن صفات مذمومة تجتمع في العقل والخيال في أنها مكروهة ذميمة من ظن وتحسس وتجسس ، وتنافس ، ويظهر أثر هذه النغمة الجاسية المتفشية في حرف السين نهاية للألفاظ مثيرة

---

(١) التاج الجامع ٣/٥ (٢) المرجع السابق ٢٤٥/٥

(٣) المرجع السابق ٣٩/٥

إيقاعًا موقظًا ، ثم العطف بجملة الأمر أخيرا كالسبب لما قبلها ، وقرن هذه الصفات بالواو يوضح أنها من قبيل واحد يرفضه الدين ، ويرهب منه .

كما نجد الوصل بالواو في حديث آخر يمثل الشق الثاني من شقي الوصل عند البلاغيين فيما يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، من حديث الأعرابي الذي جبذ الرسول بردائه ، حتى حمر رقبته ، وقال له : أحمل على بعيري هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك ، فقال النبي ﷺ « ولا واستغفر الله ، لا واستغفر الله لا واستغفر الله »[1] . .

وقد لفت موقع الواو في نظائر هذا الحديث نظر البلاغيين إلى هذه الدقة والظرف اللذين صحبا الواو ، بل إن المعنى ينقلب رأساً هنا على عقب لو حذفت الواو وكفى به هبوطاً من أفق الإيمان إلى مهوى سحيق ، ويسمى هذا كمال الانقطاع مع الإيهام .

الفصل :

عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[2].

قال رسول الله ﷺ : « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[3].

من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « كونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه »[4].

قال ﷺ « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأردية من رأس الجبل ، إن الدين بدأ غريباً ، ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي »[5].

---

(١) التاج الجامع ٦٥/٥
(٢) المرجع السابق ٤٢/٥
(٣) المرجع السابق ٣٨/٥
(٤،٥) المرجع السابق ٣٣٥/٥

وفي الحديث الأول دعوة إلى الرحمة ، وتأكيد لهذه الدعوة باختلاف صيغة الأسلوب خبراً وإنشاء مع التركيز على صفة الرحمة تقريراً ، وترسيباً لها في الأعماق ، واختلاف الجملتين في الصياغة خبراً وإنشاء يجعل الوصل غير مقبول وهذا ما يسمى كمال الانقطاع بلا إيهام ، وإذا عمقنا النظر وجدنا الدعوة إلى الرحمة ببيان أثرها برحمة الرحمن في الجملة الأولى ثم الدعوة إليها صراحة ، وفي الثانية مع الجزاء نفسه ولا بأس أن تكون قوة الترابط هنا في المعنى والغرض مبررة للفصل يجعل الثانية كالتوكيد للأولى وعلى هذا الفصل الظاهرى نجد هذا التماسك الغريب والانجذاب بين العبارات فشملها روح مسيطرة بحيث يكون اللجوء إلى الربط بالواو ضرباً من التكلف الذي يتنزه عنه الأسلوب البليغ .

وفي الحديث الثاني : تنفير من الشح بالتحذير منه مباشرة « إياكم » ثم التحذير بطريق التعريض بما حدث للسابقين تحقيقاً « إنما هلك من كان قبلكم بالشح » ونلمح هنا الغموض الذي يسري في جو العبارة من تسبب الشح في الهلاك ، وهذا ما تكفل في كشف اللثام عنه باقي الحديث ، بياناً ، وإزالة لهذا الغموض « أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » والأسلوب هنا بمنزلة عطف البيان في توضيح الغامض وجلاء الإبهام ، وقد يمكن القول بأن الفصل جاء على سبيل الاستئناف وأن قوله : « إنما هلك » يثير سؤالاً عند المتلقي « كيف تسبب الشح في الهلاك » إنه أمر على غير المعهود في « إنماء الشح للمال » وهذه الإثارة يعتبرها الحديث في بيانه فيفترضها ويورد إجابة عليها إشراكاً للمخاطب في النص ، والتحاماً في الأسلوب وتفاعلاً ، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .

كما لا يخفى أن الوصل بين أجزاء السبب « أمرهم بالبخل . . . . وأمرهم بالقطيعة . . . وأمرهم بالفجور » يوضح تسلسل الأحداث ، وتصاعدها في طريق الإثم ، واستحقاق العقاب : بخل وقطيعة رحم وفجور ، وماذا بعد الفجور إلا الهلاك ؟

فالتناسب واضح ، والارتباط في الأثر قوي ، والاتفاق في الصياغة ـ خبراً آخاذًا ، ثم تنويع الأسلوب بين فصل ووصل يأخذ بالقلب أخذًا قويًا .

وفي حديث أبي هريرة «المسلم أخو المسلم» نجد الفصل في أربعة مواطن : «المسلم أخو المسلم ـ التقوى ههنا ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه ـ كل المسلم على المسلم حرام» .

وأسباب القطع هنا تزيد من تماسك الأسلوب والمعنى ، فليس فصلاً يخرج عن طبيعة المعنى أو الغرض ، والموطن الأول : كونوا عباد الله إخواناً ـ المسلم أخو المسلم : نجد مع اختلافهما خبراً وإنشاء وهذا وحده يستقل بالفصل : أن الثانية توكيد لهذه الأخوة ، وتقرير لهما ـ وفي قوله : لا يظلمه ولا يخذله بيان لهذه الأخوة وجلاء لمقتضاها وأثرها ، أما الفصل بين المسلم أخو المسلم وبين التقوى ههنا ، فالظاهر أن الأخوة بين المسلمين وما تقتضيه من عدم الظلم والخذلان والكذب لا تناسب بينها وبين أن القلب موطن التقوى، وهذا يعني كمال الانقطاع بلا إيهام ، لكن المتبصر يرى سبك الأسلوب وأخذه بحجز بعضه ذلك أن هذه الأخوة المرتجاة من التقوى ، والتقوى محلها القلب الذي تنبعث منه الرحمة قوية تدرأ كل أذى يهم به صاحبه أن يقع بالمسلم ، ثم إن هذه التقوى أيضاً : حماية من الأذى النفسي وهو احتقار المسلم ، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» فهذا الاحتقار من الموبقات وهو إثم كله لا يجتمع والتقوى ، وما أحسن التعبير بهذين اللفظين «أخاه المسلم» ثم يأتي التعقيب الأخير ، مؤكداً الحكم السابق بحرمة الاحتقار ـ وغيره من ألوان الأذى «كل المسلم على المسلم حرام دمه» ولو جاءت الواو هنا لأحدثت بعض التغاير الذي هو بعض معناها ، وإنما الأسلوب لبنات متماسكة تماسكاً ذاتيًا لا يحتاج ربطاً من أداة خارجية .

وفي حديث «إن الدين ليأرز إلى الحجاز» تنبؤ بما سيحدث آخر الزمان للدين من إيوائه إلى نبعه الذي فاض منه ، ولا شك أن في ذلك غربة عبرت

عنها الجملة «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً» بياناً لصدر الحديث وتوضيحاً ، وقد صدرت الجملة هنا «بأن» التي للتأكيد فأزالت ما قد يتولد من شك عند المخاطب وإنه لغربة غريبة حال شيوع الإسلام وكثرة أتباعه ، ثم إنها «إن» كانت المسلك الذي أفرغ الحديث في قالب واحد ، قال الإمام عبد القاهر في معرض الحديث عن أن «هل شيء أبين في الفائدة» وأدل على أن ليس سواء دخولها ، وأن لا تدخل ، إنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه وتتحد به حتى كأن الكلامين من قد أفرغا إفراغاً واحداً وكأن أحدهما قد سبك في الآخر ، وهذه هي الصورة التي إذا جئت إلى «أن» فأسقطتها رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه[1].

وعلى هذا يمكن حمل النص على الاستئناف لما في «إن» من تسبب ، وكأن جملتها جواب عما أثاره صدر الحديث في نفس المخاطب من تساؤل واستفسار ، لماذا يأرز الدين إلى الحجاز يوم يلوذ به لياذ الوعول يذرى الجبال؟ ردًّا لهذا التشوف وإطفاء لذلك التشوف . وإفراغاً للأسلوب في قالب فني بديع ، وعلى كل فالحديث يحتملهما دون اختلال .

وحديثين آخرين للبيان والبدل «كمال الاتصال».

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فالتمسوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»[2].

عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها بعبد قد وهبه لها ـ قال ـ وعلى فاطمة ثوب إذا غطت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) التاج الجامع ٥/١٣٥

يبلغ رأسها فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك »[1].

وفي الأول انفصلت الجملة « تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب » لتوضيح الحكم وبيانه في الجملة الأولى « الريح من روح الله » يعني من عند الله وبأمر الله ، وهذا البيان الخاص بأن الريح قد تكون مصدر خير ورحمة أو عذاب ونقمة يوقظ حس المخاطب ويهز وجدانه ويثير تطلعه لاقتضاء الكلام حتى نهايته فيتضح الغرض العام وهو الالتجاء إلى الله وحده ، والتفويض إليه سبحانه لا سيما حين رؤية هذه الظاهرة الكونية ، ونلاحظ كيف انطلق الحديث بهذا التسلسل المتراكب فعمل شحنات متوالية تشغل المرء بطاقاته النفسية .

وفي حديث أنس : نجد الجملة الأولى « إنه ليس عليك بأس » تزيل المعاناة النفسية التي تقاسيها السيدة فاطمة عليها السلام ـ من حيائها الشديد ، ثم نجد الجملة الثانية تزيل آخر ما بقي من عناء وكأنها المقصودة بالحكم من دخول النبي الكريم ومعه آخر هو عبد لها . فالجملة الثانية في منزلة البدل المقصود بالفائدة مع مسحة من التعليل للحكم ، في الجملة الأولى وحديثين في كمال الانقطاع لعدم المناسبة كما سماها البلاغيون :

عن حسان بن ثابت أنه قال لأبي هريرة : « نشدتك الله ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس ، قال أبو هريرة : نعم »[2].

عن قتاده أن نبي الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : « هلال خير ورشد (ثلاثاً) آمنت بالذي خلقك (ثلاثاً) الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا »[3].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٤٢

(٢) المرجع السابق ٥/٢٨٣

(٣) المرجع السابق ٥/١٣٦١

وفي حديث حسان نجد اتفاق الجملتين في الإنشاء وإن كان المخاطب في الأولى «حساناً» وفي الثانية «رب العزة» مدعواً ، ولا يمكن إدخاله تحت ضرب من ضروب الفصل إلا كمال الانقطاع لعدم المناسبة ، لاتجاه الخطاب وجهتين مختلفتين ، لكن المتأمل يرى أن الكلام كله مسوق لغرض عام واحد هو «توفيق حسان شاعر الرسول في الذود عن حمى الإسلام ، وأن الأسلوب جاء على قاعدة تداعي المعاني ، وترابطها ذهناً ، وهكذا كل ما يسمى بعدم المناسبة في الظاهر ، كحديث «قتادة» في الهلال «هلال خير ورشد» فقد لا نجد تناسبا بين المعاني ظاهراً ، لكن حين التأمل نعثر عليه ، فالخير والرشد من عند الله خالق الهلال الذي هو ظاهرة كونية مسخرة بإرادة الله لنفع عباده ، من هنا كان الرباط المعنوي بـ«آمنت بالذي خلقك» وبما بعده «الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا» إن الكون كله والوجود بما فيه في النفس المؤمنة ـ وحدة لا تتجزأ ـ لا تنفصل عن بارئها ومبدعها ، فالإيمان يجمع هذا الشتات كله ، في نظام متسق يسبح بحمد الله .

يتضح لنا من استعراض ما سبق في الوصل والقطع : كيف امتاز بالدقة المتناهية والبراعة الفائقة والأسرار البلاغية المناسبة لما يريد المتكلم عليه الصلاة والسلام من تعبير انفعلت به نفسه الطاهرة ، والمناسبة لحال المخاطبين ، ويزيد على ذلك جذب المخاطب نفسيًا وإثارة كامن انفعاله خاصة في أساليب الفصل التي سلكت الأسلوب النفسي في تجزئ الحكم أو توكيده أو غموضه ثم جلائه ، أو التمهيد ثم التعقيب ، أو لإثارة تساؤلات عقلية ووجدانية أو ربط الكلام معنويًا بخيط لا يدرك إلا بعد تأمل ، وغير ذلك مما يؤكد أن الأسلوب النبوي لا يقصد به إزجاء الأفكار مع غناها ـ ولكن تحقيق ذلك بأسلوب فني جميل .

* * *